يجب عزل المجرم (١)

كما يعزل المجذوم

ان استقراء التاريخ الاصلي وحالات الامم الحاضرة في معاملة مجرميها يدل على ان العقابات مهما تعددت وتنوعت وبلغت من القسوة او الرقي لا تقلل الجرائم وكذلك الحال في البشر العاديين فانه لا يؤثر اقل تأثير في عدد الجرائم وانواعها . وقد كانوا في القرون الوسطى في الشرق والغرب يعذبون المجرمين بل المتهمين بضروب من العذاب يشمئز الانسان لذكرها فما بال رؤيتها . وقد كانوا في الشرق يقطعون يد السارق ومع ذلك من يقرأ كتاب المكافأة الذي وضعه صاحبه ابو جعفر بن يوسف في اواخر حكمه الدولة العباسية يجد ان هذا العقاب الصارم لم يقلل عدد اصحاب تلك الايدي التي كانوا يعيشون في البلاد الفساد

وعلى هذا يكفينا ان نتتبع اننا لا نستطيع ان نقلل الجرائم او نصلح المجرمين بالعقاب ولا بالعمل ولا باصلاح السجون ولا بغير ذلك من الوسائل التي تؤثر في الوسط . وذلك لان الوسط قليل الاثر بل معدوم الاثر في المجرم . والمجرم يرتكب جريمته لا لشيء سوى انه قد ركبت عواطفه وذهنه على ارتكاب هذه الجريمة .

وعلة الجرم ليست قلة ذكائه وعلمه بتقدير العقاب وان كان نحو ٢٠ في المائة من المجرمين قليلي الذكاء وانما علته الحقيقية في تعب عواطفه وهو من هذه الوجهة لا يستصلح الا بمقدار ما يستصلح الابله القليل الذكاء . ونحن مهما اتقنا من

(١) عن الهلال

الجهد في تعليم صبي ابله فان هذا الجهد يذهب هباء لان التربة الاصلية التي تقبل التعليم معدومة وكذلك المجرم مهما انفقنا في استصلاحه من الجهد فان هذا الجهد يذهب هباء ايضاً لان العاطفة عنده معدومة

ولنضرب مثلا على ذلك بالقتل فقد كانوا في الحرب العظمى يحتاجون الى تمرين الجنود على القتل تمريناً طويلا قد يحتاج بعضهم فيه الى تناول الخمر حتى تجمد عواطفه بعض الجمود ويجرؤ بعد ذلك على اطلاق الرصاص على انسان فهذا الذي يحتاج اليه معظم الناس الى تمرين طويل والى تناول الخمر يأتيه المجرم وهو متماسك متمالك لا يشعر بأي اختلاج لعواطفه

فالمجرم جامد العواطف يقتل ، يسرق ، يهتك سائر الحرمات وهو جامد لا يبالي بما يفعل . ثم هو لا يستشعر الاستحياء من اقوى العواطف التي تمنعنا احياناً من ارتكاب الجرائم . فاننا كلنا مثلا لا يبالي احدنا بقضاء شهر او شهرين في السجن اذا نظر الى السجن باعتباره مكاناً يؤمن الحال من حيث النوم والطعام والعمل فاذا نحن وقفنا بازاء جريمة عقابها السجن عدة شهور كان اهم مانع لنا واقوى رادع عنها هو حياؤنا من اننا ارتكبنا هذه الجريمة وقضينا بضعة اشهر في السجن . ولكن المجرم لضعف عواطفه لا يستحي . وقد تبين من فحص ٤٠٠ مجرم في شيكاغو جملة اشياء غريبة عن الاجرام يمكن ان نستنتج منها ما يأتي :

١ — ان نحو ٣٠ في المائة من جميع السكان ، من اي وسط كانوا متعلمين او غير متعلمين فقراء او اغنياء مجرمون بطبيعتهم لضعف عواطفهم

٢ — ان الجرائم وراثية لا تأثير للوسط فيها . فابناء المجرمين مجرمون لا يرجى اصلاحهم

٣ — ان نحو ٣٠ في المائة من المجرمين غير اذكياء

٤ — انه يمكن بدرس السلالة التي نشأ منها صبي ما ان يتنبأ عن مسلكه عندما

يشبه قال الدكتور هكسون الذي قضى نحو ثلاثين عاماً في درس حالات المجرمين الخاصة في محكمة شيكاغو : انه عرف حالات نشأ فيها الابوان احد ابناء المجرمين ورباه في رعايتهما وبين اولادهما وحصل معهم على تعليم الجامعة ولكنه مع ذلك نشأ مجرماً كما كان ابواه لانه عند مناسب ضمت به غريزته فالفاد فاحق حكم عليه في النهاية بالاعدام . وعرف حالات تربى فيها اولاد الطبقة الراقية من الناس في اوساط منحطة فلم يؤثر فيهم هذا الوسط الدنيء تأثيراً يشذ عن غرار آبائهم

ويرى الدكتور دكسون انه يجب ان نعامل المجرم كما نعامل من يبرص بالجذام اي يجب ان نحجم المجرمين في محجر خاص ونحميهم من الاختلاط بالناس وننقل نسلهم بوساطة طريقة معقولة . ويجب ان نقرر من سائر الناس وهم بعد صبيان قبل ان يبلغوا الثبات ويرتكبوا العدى الخطر . ويجب ان نتذكر ان طبقات المجرمين كثيرة النسل . ذلك لان غرائزهم بالتناسل

ولكن مكمن الصعوبة في قول الدكتور هكسون هو ، كما شعر به القارئ ، ان الجزم بأن هذا الصبي او ذاك سيشب مجرماً انه لذلك يجب عزله وحجره بحجازة كثيرة قد يخالف فيها الذي يجرية الجزم . ثم قد تكون سلاحاً سافلا في يد حكومة ظالمة . اما من حيث منع المجرمين من التناسل فليس ايضاً هيناً الا اذا سهلنا هذا مقصوراً على اولئك الذين ثبت اجرامهم . وهم في هذه الحالة مضمون عدم تناسلهم لخصيهم او اعدامهم . اما التجرؤ على فعل ذلك قبل الاجرام فمجازفة خطيرة ايضاً .

وليس شك في ان ما يعرف عن المجرمين واحوالهم الجسمية والذهنية والعاطفية قليل الا جداً بالنسبة الى ما يجب ان نعرفه عنهم . وضع كتاب « المجرم » سنة ١٨٧٦ ولكن لم يبلغ كاتبه حد الجزم . واكثر من درس احوال المجرمين هذه الايام هو الدكتور جرنج صاحب كتاب « الجنس الانكليزي » الذي وضعه سنة ١٩١٣

والذي اسس قواعده على ملاحظة المساجين واحصاء احوالهم الخفية . وكانت اهم ملاحظاته ان المجرم يتسم بالقصر في القامة وقلة الذكاء وبعواطف غير اجتماعية . وليس للوسط في رأيه اثر في ايجاد المجرم وانما الوراثة تعمل فيه كما تعمل في تخطيط ملامح جسمه او ذهنه . وغيره ممن اشتغل بدرس الطرق واحوالها لا يزال رأسيه ليبرزو من ان هناك علامات كالكف الكبير الضخم او الاذان العظيمة او غير ذلك مما يعد ردة الى الاسلاف حين كان الانسان في درجة لا تعدو دور الحيوان

***

كتاب عمر بن الخطاب في القضاء

كتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري وهو يلي القضاء له

اما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلي اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً احل حراماً او حرم حلالاً ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك ان ترجع عنه فان الحق قديم والرجوع الى الحق خير من التادي في الباطل . الفهم الفهم عند ما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد الى احبها عند الله ورسوله واشبهها بالحق واجمل في التعذر امداً ينتهي اليه فان احضر بينة اخذت بحقه والا وجهت عليه القضاء فان ذلك اجلى للعمى وابلغ في العذر . والمسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد او مجرباً عليه شهادة زور او ظنيناً في ولاء او نسب .

***